أعداء العروبة قديماً وحديثاً

obeikandl.com

obeikandl.com

قلت فى كتابى « كفاح دين »

« وإعزاز العروبة من شعائر الإسلام » .

روى الترمذى عن سلمان الفارسى قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا سلمان لا تبغضنى فتفارق دينك » ! قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : « تبغض العرب فتبغضنى » ..!

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ غَشَّ العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى » .

فما من مسلم إلا وله من دينه دوافع تجعله ــ ولو كان هندياً أو فارسياً أو تركياً ــ يحب العروبة ويحمى بَيْضتها ويصون حِماها .

والعربى المسيحى ، لن يكره جنسه مادام مستقيماً مع طبيعته !

بل هو لن يكره محمداً ﷺ أو يضيق بأتباعه .

إنه يؤمن بعبقريته إنْ لم يؤمن برسالته .

وهو يتغنى بأمجاد قومه ودعائم حضارتهم إن لم يشركهم فى صلاة أو يصدقهم فى اعتقاد !

يقول السيد رشيد خورى تحت عنوان « الاستقلال حَقٌّ لا هِبة » مشيداً بحضارة المسلمين فى الأندلس ، ومتغنياً بمفاخر قومه العرب ، وإن كان مسيحياً :

خَاطِبْ وحوشَ أربة بلسانِهِمْ ... واذخرْ لسانَ الحبِّ للإنسانِ
أحسِنْ إليهم بالإساءة إنما ... ترويضُ ذى ناب من الإحسان
هَلَّا ذكرْتَ زمان عِزٍّ لم يَزَلْ ... بالشمس مدفوعاً إلى الأزمانِ
متألقاً كشعاعها قدامها ... فيزيدُها شَوْقاً إلى الدورانِ

لما ركبت البحر تهِزُ مَوْجهُ هَمْزاً إلى بحر من الإسبانِ
خوضاً بكُلِّ طمرة ما آثرتْ للكرِّ ميداناً على ميدانِ
ففتحت « أندلساً » بصارمِ « طارق » بَلْ قُلْ : بطارقةٍ من الحدَثانِ
هَبَّتْ كعاصفةٍ عليها وانجلَتْ عن عارضٍ من خيرها هتان
فالغربُ شرقٌ من بَهِيِّ سنائها والشرقُ من إشعاعها شَرْقانِ
وجعلت غابات الوحوش حَدَائقاً بالعلم زاهرةً وبالعمران
فقطعت حُجَّة كل غِرٍّ زاعم أن العُلَا برئت من القرآنِ

ولماذا تكون محبة العرب من تعاليم الإسلام ؟

ألأنهم شعب مختار حَبَتْهُ العناية خصائص يشرف بها آخر الدهر؟

ألأن معدنهم أنقى من معادن غيرهم ، ودمهم أشرف من دماء سائر الناس ؟

كلا، كلا فإن الله لم يفضل جنساً على جنس ، ولم يرجح دماً على دم .

غاية ما هناك أن أحوالاً تتوفر فى بعض البيئات فتنبت جيلاً أقدر وأعلم وأحوالاً أخرى تعترض أمة ما فتهوى بها .

« **وتلْك الأيَّام نُداوِلها بَين الناسِ** »(١).

وقد تسمو أمة حتى تبلغ الأوج ثم تعقب أخلافاً لا يقدرون على تكاليف العظمة فينحطوا حَتْماً ، وعكس ذلك يقع .

إن الأمجاد لا تورث إلا إذا بقى ما يكسبها ويحفظها .

وتواريخ الأمم بين مَدٍّ وجَزْرٍ لهذه الحقيقة.

تدبَّر حال اليهود فى فترتين متباعدتين من تاريخهم .

يوم قيل لهم : « **ادخلُوا الأرض المُقدَّسةَ** .. » فكان جوابهم : « **إنَّ فِيها قوْماً جَبَّارِينَ وإنَّا لن نَدْخلها حَتى يَخْرجُوا مِنها** »(٢).

---

(١) آل عمران آية : ١٤٠ .

(٢) المائدة : ٢١ ، ٢٢ .

وهل دخول بلد بعد خروج المقاتلين منه جهاد ؟ إن الكلاب لا تعجز ـ والحالة هذه ـ عن الدخول !!

فلما استنهض همتهم قالوا له :

« **اذْهَبْ أنتَ وربكَ فقاتِلَا إنّا هاهُنا قاعِدونَ** »[1].

هذا يوم مضى .

وثَمَّ يوم آخر .

يوم أقبلوا مسلَّحين يحاربون الجامعة العربية ، ودولها السبع ، ويتكاتفون رجالاً ونساء على استقطاع فلسطين من كيانها الحى ، ويرسخون أقدامهم فى مواقعهم فلا يتزحزحون عنها إلّا بِشِقِّ الأنفس ، ونحن العرب نواجه الآن ذلك الموقف !!

إن الأمم لا تعلو ولا تسفل خَبْطَ عشواء .

وقد تحدثنا فى هذا الكتاب عن الحكمة فى اختيار العرب لحمل الرسالة الإسلامية ، وأفضنا فى ذكر الفضائل التى امتاز بها العرب على عهد البعثة .

ومن سوء التفكير أن نحسب هذا الاختيار الإلهى سوف يلازمنا على أية حال .

إن العناية العليا تتخلى يقيناً عمَّنْ يخون واجبه .

والتلميذ الذى ينجح فى إحدى فرق الدراسة لن يستمر نجاحه إلا إذا استمر انتباهه ودأبه .

وسيسقط حتماً فى سنة مقبلة إذا كانت عُدَّته لاجتيازها ذكريات سنة مضت .

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين من مختلف الأجناس أن يحبوا العرب لا لشيء إلا لأن العرب سدنة هذه الرسالة ، وحملة ذلك الإسلام .

فإذا فرَّط العرب فى تكاليف هذا المنصب لم يكن من إنزالهم عنه بُدٌّ .

---

(١) المائدة : ٢٤ .

ومحبة العرب هنا نابعة من محبة الدين نفسه ، فكأنها عاطفة اعتراف بالجميل لمن أسداه ، أو إقرار الإنسان بالفضل لمن علّمه وهداه .

والأسلاف الصالحون ، من صحابة وتابعين ، كانوا يُعظّمون نعمة الإسلام التى أفاءها الله عليهم .

ويشعرون أنهم كانوا جهالاً فتعلموا .

ومتقاطعين فتواصلوا .

وعبدة أوثان فانتقلوا من عالم الخرافة الى عالم الحق .

ومساعر فتن وحروب فأضحوا رسل عدالة وسلام .

وقطراً منسياً فى زحام الحضارات . وتنافس المدنيات ، فصاروا طلائع حضارة غمرت العالم بصبح من العلم والأدب براق الشعاع .

أجل كان الخلفاء الراشدون فى مجال الحكم ، والأئمة الهداة فى مجال العلم ، مستيقنين بأن الإسلام وحده ، لا شيء معه ، هو الذى صنع من العرب المعجزة التى حيَّرت الألباب ، والتى جعلت أولئك الناس يباغتون الأحياء طُرَّاً بانطلاقة صعقت الباطل الذى طالما اختال واستطال ، وأحيت الحق الذى غارت أصوله وتوارت معالمه .

لم يكن ساسة الأرض يتصورون هذا ، وما كان ساسة العرب ـ إنْ صحَّ التعبير وكان للقوم ساسة ! ـ ما كانوا ليظنوا أن القدر بالغ بهم تلك الدرجة السَّنية .

ولكنها معجزة الإسلام وثبت بهم من السفوح إلى الذُّرَى ، فإذا هم مشهورون وكانوا من قبل خاملين .

وصدق الله العظيم :

« **وَإِنَّهُ لِذكرٌ لك وَلِقَومِكَ ، وَسوْفَ تُسألون** »[1].

---

(١) الزخرف آية : ٤٤ .

لكن فى الطبع الإنسانى انتكاسات غَدْرٍ تثير العجب .

ولقد رأينا فى أغنياء الحروب مَنْ هبطت عليه الثروة وكان من قبل لا يجد القوت فإذا هو يلوى لسانه بكلمات عن عراقة أسرته ، ومجد آبائه وكأنه يقول :

« هذا حقي ورثته كابراً عن كابر » .

وهو يعلم أن أباه من طول الحفاء كان يشتهى ركوب الحمير !

لذلك كان عجباً من بعض العرب أن يقف على أنقاض دول الأ كاسرة والقياصرة ، الدول التى شمخت بأنفها قروناً دون أن يجرؤ أحد على مَسِّ هيبتها ثم يقول :

ذاك أثر العروبة المنتصرة ! موهماً أن الجنس العربى هو ـ من غير معتقده الجديد ـ سِرُّ هاتيك الفتوح الروائع !!

إنه ليس أتفه من هذه الأكذوبة إلا اللسان الذى رددها والأذن التى صدَّقتها .

ومعروف أن العرب لم يكن لهم قبل الإسلام وجود فى السياسة العالمية ، ولا فى ميزان القوى العسكرية .

ومعروف أن الحبشة وهى دويلة ذَنَبٌ بالنسبة إلى الرومان والفرس ـ استطاعت أن تجتاح اليمن ، وأن تخترق نجداً ، وأن تبلغ مكة .

ولولا تدخل السماء لَدُكَّ البيت الحرام .

ما كان العرب يومئذ بقادرين على رد المعتدين ، وما استطاعت قريش ولا غير قريش أن تنظم جيشاً يواجه الأحباش .

لقد تركوا البيت لرب البيت يتولى حمايته ، وقال عبدالمطلب وهو يومئذ زعيم مكة :

لا هم إنَّ العبدَ يَمنَعُ رحْله فامنعْ رِحَالك
وانصر على آلِ الصليبِ وعابديه اليومَ آلك

وفى ذلك نزلت السورة :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأَصْحَابِ الفِيل . أَلَمْ يَجْعَل كَيْدَهُمْ فى تَضْلِيل . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيل فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مَأْكُول »[1].

فكيف ـ وهذه طاقة العرب ـ يتوهم أحد منهم أن العروبة المجردة صاحبة الفخر فى هذا البناء الشاهق ؟ وبالتالى يتعصب لعنصره ، ويغالى بدمه ، وتتراجع إلى نفسه الفارغة حمية الجاهلية الأولى .

إن مبادىء الإسلام مناط هذه العظمة ، وسناد تلك الأمجاد .

والواقع أن أول أعداء العروبة هم أولئك العرب الذى يجحدون فضل الإسلام على آبائهم وعلى ذراريهم ، ويمضغون كلمات سخيفة عن مجد مزعوم وحسب منتحل .

وجمهرة الأتقياء من العرب رفضوا هذا الكلام وجبهوا أصحابه .

لكن الحياة لا تسير دائماً وَفْق تقاليد التقوى ، ولا فى اتجاه المثل الفاضلة .

فسياسة الحكم ـ والحكم أول ما انحلَّ من عُرَى الإسلام ـ قامت على عصبية القوة والنسب .

وللحكم سلطانه الغالب ، وله تقاليد تنشأ فى ظله ، وله قُصَّاده الذين يترضونه طلباً للدنيا ، ورفاهية الحياة .

ومن الإنصاف للإسلام وأمته وتاريخه أن نحدد مقدار ما تسرب من مآثر الجاهلية إلى هذا القطاع من الحياة الإسلامية العامة .

إنه فساد انحصر فى بيئة الحكم وحواشيه ، وسلمت منه كتل الجماهير وميادين العبادة والتعليم والأدب والقضاء والفتوى .

ولئن احتلت العصبية دواوين السلطة ، ودنيا الوظائف لقد كانت محقورة مذكورة فى المسجد والمدرسة ، والمحكمة والبيوت ، والشوارع .

---

(١) سورة الفيل .

واستطاع المسلمون من كل جنس أن يتقلبوا فى مناصب القيادة الأدبية بين العرب والمسلمين ، فإذا كان الأعاجم قد فاتهم أن يحكموا ـ أيام الأمويين مثلاً ـ فإنهم سادوا أمصار العرب بالفقه ، والسنة ، والتفسير ، والأدب واللغة .

إلا أن جرثومة العصبية التى ملكت ناصية الحكم نفثت سمومها ، وعكَّرت هذا الصفو المعنوى الكريم .

فإذا لفيفٌ من العرب الذين لم تتشرب أفئدتهم تعاليم الدين يغالون بدمهم ويفخرون بحسبهم ، ويظنون أنفسهم أحق بالحياة والصدارة من غيرهم !

ولِمَ ـ بالله ـ يعتقد قومنا فى أنفسهم هذا ؟

ومَنْ الذى يصدقهم فى ذلك الخيال الطائش ؟

أهو الإسلام الذى وضع قاعدة .

« **إنَّ أكرَمَكُم عِند الله أتْقاكمْ** »[1].

أم هى الحياة التى يجب أن تعطى زمامها لأقدر الخلق على امتلاكه أياً كان جنسه ولونه ؟..

ومع ذلك فإن هؤلاء سموا الولد الذى ينشأ عن زواج عربى بأعجمية هجيناً ثم شرعوا يتحدثون عن الهجناء بما لا يليق ..

قال صاحب العِقْد الفريد :

« ومن أشرف الناس همة عقيل بن علفة المرى ، وكان أعرابياً يسكن البادية وكان تصهر إليه الخلفاء ، وخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده . فقال له : جنبنى هجناء ولدك » .

وقال :

« ويُروى أن أعرابياً من بنى العنبر دخل على سوار القاضى فقال : إن أبى مات

---

(١) الحجرات آية : ١٣ .

وتركنى وأخاً لى ، وخطَّ خطين ، ثم قال : وهجيناً ، ثم خط خطاً ناحية ، فكيف يقسم المال ؟

فقال له سوار :

ها هنا وارث غيركم ؟

قال : لا .

قال : فالمال بينكم أثلاثاً .

قال : ما أحسبك فهمت عنى ، إنه تركنى وأخى وهجيناً ، فكيف يأخذ الهجين كما آخذ أنا وكما يأخذ أخى ؟

قال : أجل :

فغضب الأعرابى ، ثم أقبل على سوار ، فقال :

والله لقد علمت أنك قليل الخالات بالدهناء [1] .

قال سوار : لا يضرنى ذلك عند الله شيئاً .

وموقف هذا البدوى الغِرُّ يمثل العروبة المتعصبة لنفسها ، وجنسها ، وموقف القاضى الجليل منه يمثُل الإسلام الذى يؤدبها ويهذبها .

ويقول بدوى أحمق :

إنَّ أولادَ السَّرارى كثروا ياربِّ فينـــا
رَبِّ أدخلنِـــى بِلَاداً لَا أرَى فيها هَجينـــا

وما الذى يمنع هذا الأعرابى من العودة إلى الصحراء إذا كان يكره عباد الله مالم يكونوا على شاكلته ؟

وقد تطرق هذا الهوس إلى بعض الفقهاء .

فأفتوا بأن الأعجمى ليس كفوًا للزواج من العربية .

(١) يعنى أن نسبة لأمه ليس نقى العروبة . ولذلك يحكم على هذا النحو

والغريب أن هذا الفتيا المنكرة سُجِّلتْ فى كتب الأحناف مع أن الإمام الكبير ابا حنيفة أعجمى .

أترى أولئك المفتين يحسبون إمامهم ليس أهلاً للزواج من امرأة عربية ؟

أإذا خطب الإمام الغزالى امرأة من بنى هاشم قيل له :

إنك أوضعُ نسباً منها فلا تليق لها ؟

أو هذا إسلام ؟

لقد روى صاحب الأغانى : أن رجلاً من الموالى خطب بنتاً من أعراب بنى سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة ، وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، فشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى المولى ، ففرَّق بين المولى وزوجته ، وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

فقال محمد بن بشير :

قضيتَ بسُنَّة وحكمْتَ عَدْلا ... ولم ترِثِ الحكومةَ من بعيد

وفيها يقول :

وفى المائتين للمولى نكالٌ ... وفى سَلْبِ الحواجبِ والخدُود
إذا كافأتهُمْ ببناتِ كسرَى ... فهل يَجِدِ الموالى مِنْ مَزِيد
فأى الحقِّ أنصفُ للموالى ... من أصهارِ العبيدِ إلى العبيد ؟

ونحن ندهش لهذا الخبر ، ونظنه من افتعال الأدباء تصويراً لحمية الجاهلية التى غلبت على بعض الناس .

وشكّنا فى هذه الرواية يرجع إلى عدة أسباب .

أن الخوارج مؤمنون بالمساواة بين الأجناس كلها ، وقد رفضوا حديث « الأئمة من قريش » وجعلوا إمامة المسلمين فى الأكْفَاء لها من أى قبيل فكيف يأبى أحدهم على أعجمى أن يتزوج من عربية مع أنه يراه جديراً بالخلافة العامة ؟

ثم إن المودة لم تكن قائمة بين الحكام الأمويين ورؤوس الخوارج حتى يذهب هذا شفيعاً إلى ذاك فى أمر ضاق به .

وثَمَّ سبب أخير ، أن الأمويين المتعصبين تعصباً شديداً لم يكونوا بحاجة إلى مَنْ يغريهم بمضايقة الأعاجم ، والإساءة إليهم ، لقد كانوا يتطوعون بهذا الشر من تلقاء أنفسهم .

* * *

والحق أن وقوع الحكم فى براثن العصبية كان مثار فساد كبير ، وأن أَوْلَى المسلمين بزعامتهم أقدر رجل فيهم ، مصرياً كان أم فارسياً ، ما دام قد تعرَّب ، وحسن إسلامه ، وشَرُف بدينه على غيره من أبناء البيوتات العربية ولو كانوا سروات قريش !!

وما جاء فى السنة من أن الخلافة فى قريش .

إنما هو حكم موقوت بظروفه ، فإن منزلة قريش بين قبائل العرب فى العصر الأول كانت تشبه منزلة انجلترا فى عصرنا هذا بين دول « الكومنولث » .

أى أن القيادة لا تعدوها إلى غيرها لوفرة أسباب السيادة فيها ، ولا يعقل أن تكون كندا ، أو الهند أو استراليا مالكة الزمام فى هذه الكتلة من البشر .

بل إن الدولة « الأم » أعنى انجلترا هى سيدة الموقف ، وربما وُجِد فى أنحاء « الكومنولث » أفراد أقدر وأعظم من رؤساء وزارات انجلترا .

ولكن الفرد لا يلى الحكم بكفايته الخاصة وحدها ، وإنما بما يحف به من أدوات السيطرة والنجاح .

وقريش فى أيام الرسول وصحبه الأقربين كانت طليعة متفوقة ، وكان العرب كما قال أبو بكر لا يعهدون هذا الأمر إلا فيها .

بَيْدَ أن هذه الملابسات محلية وموقوتة .

ومن حق المسلمين فى عصرنا هذا وقبله بألف سنة ألَّا يفكروا فى تولية أمورهم

قرشيا ، بل يتحرون الكفاية حيث كانت ، ثم يسيرون وراءها ، خصوصاً بعد ما رسخت أصول الإسلام فى أجناس شتى ، ووأتت الفرص شعوباً كثيرة فى الشرق والغرب لتخدم هذا الدين بأمانة وشرف .

إن قريشاً لم تحتكر قيادة الإسلام إلى قيام الساعة ، وما يكون لها هذا ، وما ينبغى لأحد ما أن يحسب ولاية المسلمين حكراً فى بيته أو فى بنى جلدته .

* * *

لقد ذهب العرب بأنفسهم ، وفاخروا بآبائهم .

والمدلَّ بنفسه لن يعدم مَنْ يلقاه بالعاطفة نفسها ، بل من يُكِنُّ له الضيق ويتمنى له العثار .

ولم تُصَبْ مكانة الإسلام الرئيسية أول الأمر بخدش عند هؤلاء وأولئك ممن يتيهون بالآباء ، لكن إذا كان العرب يتحدثون عن أصولهم ، فهل يسكت الفرس ؟ لا بل يفخرون .

بَيْد أن ذلك الفخر مع إعزاز للدين الذى اعتنقوه ، يقول مهيار الديلمى :

وأبى كِسْرى على إيوانِه أينَ فى الناسِ أبٌ مثلُ أبى !
قد ضمنت المجدَ من أطرافِه سُؤْدد الفرسِ ودين العرب !

ونحن نكره هذا الخلط ، فليس من حق العرب أو الفرس أن يُنوِّهوا بقوميتهم ، أو يثوروا اليها فى جِدٍّ أو هزل ، لأن الإسلام رفض هذه النزعات جميعاً وقضى عليها .

وهذه العصبيات المقيتة كانت ولاتزال مصدر بلاء فادح الضرر على المسلمين ووحدتهم ، وعلى الإسلام وتعاليمه .

نعـم !

إن النزاع بين هذه العصبيات قطع أواصر أمر الله أن توصل .

وأحيا مطامع أمر الله أن توبق .

وقدم رجالاً ما كان لهم أن يتصدروا .

وأخَّر أئمة ما كان يليق أن يهدروا .

وشغل المسلمين بعضهم ببعض ، وكان حقاً عليهم أن يشتغلوا بكفاح عدوهم لا بكفاح أهوائهم .

* * *

ونريد أن نؤكد حقيقة إسلامية صريحة ، أن النزعة إلى تسوية المستعربين بالعرب مهما تباينت أجناسهم الأولى هو مقتضى الإسلام ، وأن مطالبة أولئك العرب الجدد بحقهم فى ولاية الحكم ، ووظائف الإدارة أمر لا غبار عليه ، بل الغبار فى مصادرته ، وأن تسمية هذه النزعة شعوبية خطأ دينى ، إنها نزعة إسلامية ، والوقوف أمامها هو الذى يُسمَّى شعوبية ، ولو كان هذا الوقوف من العرب أنفسهم !

إن احتكار القبائل العربية ـ التى عاصرت البعثة ـ لولاية الحكم والإدارة ضرب من الأثرة لا يمكن إلباسه ثوب التقوى ، ثمرة هذه الأثرة كانت مُرَّة . سواء على العرب فى مكانتهم أو على الإسلام فى مسيره .

ماذا كانت نتيجة ذلك الحرص على حرمان الأعجمين الذين تعرَّبوا بعد إسلامهم من مساواة العرب أنفسهم فى شتى المناصب الكبرى؟

كانت نتيجة البغضاء للعرب على نحو مؤسف أشد الأسف .

وأحسَّ العرب خطورة المآل الذى انحدروا إليه !

أنهم ارتدوا قبائل متباغضة ، يكيد بعضها للآخر حيناً ، أو يكيدون جميعاً للأعاجم حيناً آخر .

فماذا أثمرت هذه السياسة الجاهلية ؟

ماذا أنتج تعلق العرب بقبليتهم الضيقة أو جنسيتهم العامة ؟

ماذا تمخض عنه هذا البعد الآثم فى نظر الإسلام وتعاليمه ؟

لقد زُلزلَتْ الأرض من تحتهم ، وأخذ الفرس يظاهرون القوى المتمردة على الأمويين ويحفرون القبور للعرب أجمعين .

ولما أدرك بعض رؤساء العرب ذلك المصير ، شرعوا يفكرون فى مصالحة أو مهادنة تَلُم شعثهم لمواجهة التيار الفارسى الجديد ، أى فكروا فى تجميع العرب لمواجهة الفرس ، بدلاً من أن يواجهوا الموقف بتغليب روح الإسلام ونصوصه لاستئصال العلة !

وما غناء « قوميتهم » العربية فى تلك الأزمة العصيبة ؟

تأمل ما قاله نصر بن سيار :

أبلغْ ربيعةَ فى مَرْوٍ وإخوتِهم ... فَلْيغضبوا قبلَ ألّا ينفعُ الغضبُ

ولْينصُبوا الحربَ إن القومَ قدْ نصبوا ... حَرْباً ، يُحرَق فى حافاتها الحطبُ

ما بالكُم تلقحون الحربَ بينكُمُ ... كأنَّ أهل الحِجاَ عن رأيكم عزبُ

وتتركُونَ عَدُّواً قد أظلّكمـوا ... مما تأشب ، لَا دين ، ولا حسبُ

قدماً يدينون دِيناً ما سمعتُ بِهِ ... عن الرسول ، ولم تنزلْ به الكتبُ

فمن يكُنْ سائلاً عن أصْلِ دينهمو ... فإنَّ دينهمو : أنْ تقتل العربُ

وأخطأ نصر بن سيار فى إرسال هذه الصيحة .

إن العرب هم الذين يقتلون أنفسهم حين ينسون أو يتناسون رباط الدين الذى يجمعهم مع شتى الأجناس .

أجل ، إن العرب : لا الفرس ولا الترك هم الذين ينتحرون مادياً و أدبياً حين يحفون غيرهم من المسلمين ، وحين تبلغ بهم الغفلة حدّاً يحسبون معه أنهم من غير الإسلام شيء له حظّ أو له شأن ..

* * *

يبد أن كراهية الآخرين للعرب تدحرجت من درك إلى درك حتى انسلخت بأصحابها عن الإسلام أو كادت ، وهذه هى الطامة .

تحول كره العرب إلى فتور نحو الدين الذى جاءوا به .

ونشأ عن ذلك اعتداء على حدوده ، وانفلات من تعاليمه ..

ثم أوغل القوم فحنُّوا إلى ما ورثوا من تقاليد ومبادىء ضالة .

ثم ازداد الطين بلة حين استيقظت « الوطنيات » الأولى تربط الناس بمذاهبهم ونحلهم وتاريخهم الخاص ، وتشعرهم أن الإسلام غريب عنهم ، وأن أهله دخلاء ، وأن لكل شعب أن يلتحق بجاهليته الأولى ، وأن يتخلى عن دين الله .

هذه هى الشعوبية .

ليست الشعوبية النزاع بين جنسين على أيهما أحق بالسلطان .

إنما الشعوبية أن يزهد قبيل من الناس فى نسبه الإسلامى ، وأن يدع الاستقاء من معين الدين ، مؤثراً عليه نسبه الخاص ، ومعينه القومى .

طاعناً بذلك فى العروبة التى حملت الإسلام ، وضائقاً بالإسلام الذى نقله من حال إلى حال .

الشعوبية أن يرفع بشار بن برد عقيرته بتفضيل النار على الطين فى أبياته التى يقول فيها :

إبليسُ أفضلُ مِنْ أبيكم آدم ... فتنبَّهُوا يا معشرَ الأشْرارِ
فالنارُ عُنصرهُ وآدمُ طينةٌ ... والطينُ لا يسمُو سُمُّو النارِ

فهذه نزعة مجوسية ، مردها عبادة الفرس الأقدمين للنار على مذهب زرادشت وذاك شئ محاه الإسلام محواً ، فكيف تستحى شاراته .

الشعوبية أن يرفع أبو نواس عقيرته بمدح الخمر ، وأن يتغنى بمعابثة الغلمان ، وتلك مفاسد يبرأ منها المجتمع الإسلامى العربى ، وإن اصطبغت بها مجتمعات أخرى .

الشعوبية فصل الإسلام عن مفهوم أى قومية ، لتسير فى الحياة وحدها بعيدة عن هديه ، ناقمة على وحيه أى أنها ارتداد عام .

وقد بلغت [1] هذه الحركة أوجها فى القرن الثالث الهجرى ، وساعد على ذلك أن الخلفاء العباسيين تعصبوا للإسلام ، ولم يتعصبوا كثيراً للعربية ، فحاربوا الزندقة ، ولم يحاربوا ــ فى شدة ــ النزعة العجمية ، وذلك طبيعى لأن أكثرهم كما أبنَّا ــ مُولَّدون .

ولقى العرب من العجم عنتا شديداً ، فالوزراء أكثرهم عجم ، والدسائس تُدسُّ فى القصور لإضعاف شأن العرب ، وإذا ثار العرب فى جزيرتهم أو فى الأطراف نكل بهم قواد العجم وجيوشهم أشد تنكيل ، وفى أعماق نفوسهم شعور بأنهم ينتقمون منهم من يوم القادسية ، ولم يكن شعور الترك الذين جلبهم المعتصم بأحسن حالاً من شعور الفرس ، وكثر الشعر فى هذا القرن والذى بعده من الأعاجم الذين تعلموا العربية يفخرون بنسبهم ، ويعتزون بقومهم ، فافتتح ذلك بشار بن برد ، كما رأيت ، وتبعه ديك الجن الشاعر المشهور ، قال فى الأغانى :

« وكان شديد التشبب والعصبية على العرب يقول : ليس للعرب علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم عليه السلام ، وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلاً منا قُتِل به ، ولم نجد الله عز وجل فضَّلهم علينا إذ جمعنا الدين ! » .

ويقول قائلهم :

فلستُ بتاركٍ إيوانَ كِسْرى لتوضح أو لحَوْمَل فالدَّخُولِ
وضَبٌّ فى الفَلَا ساعٍ ، وذئبٌ بِهاَ يَعْوى ، ولَيْثٌ وسط غيلِ

ونحن نرفض هذه المنابزات السخيفة ، ونأبى أن تتقاذف الشعوب المختلفة بهذا اللغو .

وننظر إلى الإنسانية المجردة ، فى كل امرىء من أهل الأرض .

وننظر إلى الأخوة الجامعة بين أبناء الإسلام .

---

(١) ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين .

ونعدّ ما وراء ذلك من متافرات ومفاخرات شيئاً لا قيمة له ولا خير فيه .

ولن نتزحزح قيد شعرة عن اعتماد موازين الإسلام وحدها ، وهى موازين لا يوضع فيها إلا التقى والعفاف والخلق ، أما اختلاف الملامح والألوان فمستبعد أولاً وآخراً .

والمهاجاة بين الأفراد لون من البذاءة المستقبحة ، لكنها بين الشعوب لون من الهدم البعيد المدى ، وما تخلفه من إيغار الصدور ، وتمزيق الأواصر ، وإيقاع الوحشة ينتقل من جيل إلى جيل ، ومن هنا كان إجرام حملة الأقلام الشريرة ، والألسنة العمياء بالغ السوء فى الدنيا والآخرة .

ثم إن العصبية لا تُعالج بمثلها ، وإذا غالى هذا بدمه وهذا بدمه فلمن ينتهى الأمر بالخليقة إلى خير ، سيظلون على أسوأ حال ، يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء .

وإذا تعصب العربى لقومه فعلاجه أن يؤدَّب بأدب الإسلام ، وإذا تعصب التركى لقومه فعلاجه أن يؤدَّب بأدب الإسلام .

إنه صعب على البشر أن يعنُوا بعضهم لبعض ، ولكنه من السهل عليهم أن يعنوا جميعاً لله ، وأن ينزلوا على حكمه .

فإذا نفر أحد من السجود لله شُدِخ رأسه ولا كرامة .

وعندما ينضوى الكل تحت راية الإسلام ، فسيعرف ــ باسم الله ــ أن هناك فضلاً للغة القرآن ، وأن أهل هذه اللغة ونقلة تلك الرسالة لهم مكان ملحوظ يُستمد من الدين نفسه ، لا من شىء بعيد عنه .

ومعنى هذا أن تبقى العروبة وسط هالة من الإجلال ، وأن تبقى أمتها مصونة القدر نابهة الذكر .

من أجل ذلك نحن نرد الهجوم على العرب ، ونتوجس من فتح أبوابه ، ونرتاب فى نيات القائمين به ، ونحسب أن جلتهم إنما يقصدون هدفاً أبعد ، هو النَّيْل من

الإسلام نفسه ، وإهانته بإهانة العروبة التى تحتويه ، كتاباً ، ونبوة ، وقبلة ، وتاريخاً ، وثقافة .

لقد جاء الإسلام إلى أقاليم منتثراً عِقْدها ، فنظمها وطناً واحداً ، وإلى شعوب ممزَّقة مضللة فجعلها أمة ملتقية على الهدى .

أمة واحدة فى ظاهر أمرها وباطنه .

وأصبحت هذه الأمة الكبيرة ، وقد رضيت الله رباً ، والإسلام ديناً ، ومحمداً نبياً ورسولاً .

الروح الذى تنبعث عنه واحد .

والأمل الذى يحدوها واحد .

والتاريخ الذى يصور ماضيها واحد .

والمنهج الذى يحدو حاضرها واحد .

والهدف الذى تنطلق إليه واحد .

فجاءت الشعوبية تنثر هذا العِقْد المنظوم ، وتجزىء هذه الكتلة الملتحمة .

وتغرى كل جزء أن يحيا منفصلاً عن أخيه كارهاً له ، يلتمس تاريخه وحده ، ويشق مستقبله بعيداً عن روابط الاعتقاد والتشريع والخلق والأدب .

وهذا قضاء على الإسلام ورسالته ، وإن بدا هذا القضاء متدرجاً ، ينأى كل شعب بنفسه أولاً على أن الإسلام شطر حياته الخاصة ، ثم تنتهى هذه العزلة باقصاء الإسلام نفسه ، على أنه لا صلة له بقومية ، ولا مكان له فى كيان الشعب المستقبل إلا مكان القشور والنوافل .

والشعوبية القديمة ، أزرتْ على العرب ، ثم شغبت على الإسلام ، وتحولت بيئاتها إلى مهارب للزنادقة ومآو للفسقة ، وحصوناً لمن يريدون إحياء المجوسية ، والمانوية ، والمزدكية ، وغيرها من النِّحَل القذرة .

والشعوبية الحديثة زادت على ذلك أشياء أخرى .

لقد تحولت من بغضاء للعرب إلى بغض للغة والدين جميعاً .

وأمست شاراتها المميزة الجهر بإبعاد الشريعة الإسلامية ، وازدراء اللغة العربية ، والتمرد على القيم والتقاليد التى وفد بها تاريخنا ، وعاش عليها آباؤنا ، وإحياء الفرعونية فى مصر ، والسورية فى الشام ، والبربرية فى المغرب وهكذا ..

والشعوبية الحديثة تشبه القديمة فى خيانة دعوتها ، وحماقة فكرتها ، إلا أن الأولى كانت تقوم على استحياء الجاهليات التى أخمد الإسلام أنفاسها .

أما الشعوبية الحديثة فهى ـ مع ذلك ـ تقوم على إنفاذ مكايد الصليبية الحديثة وترديد مطاعنها ، وبعثرة الأمة الإسلامية فى كل فَجٍّ بعد تعريضها لعشرات التيارات الضائقة بالإسلام ونبيه وتاريخه وحضارته .

١ ـ فهناك الدعوة إلى أن القرآن :

(أ) كتاب مسيحى يهودى نسخه محمد .

(ب) وأن الإسلام دين مادى لا روحية فيه ، يدعو إلى الدنيا ، وليس إلى صفاء النفوس والمحبة .

(جـ) وأنه ـ أى الإسلام ـ يميل إلى الاعتداء والاغتيال ويغرى أتباعه بالقسوة على غير المسلمين عامة .

(د) كما أنه يدعو إلى الحيوانية والاستغراق فى ملذات الدنيا .

٢ ـ وهناك الدعوة إلى :

(أ) أن الفلسفة العربية فكر يونانى ، كُتِبَ بأحرف عربية .

(ب) وأن اللغة العربية الفصحى لم تَعُدْ صالحة اليوم ، وبدلاً منها يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة ، كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضاً عن الأحرف العربية .

٣ ـ وهناك الدعوة إلى :

(أ) إحياء الفرعونية فى مصر .

(ب) والآشورية فى العراق .

(جـ) والبربرية فى شمال أفريقية .

(د) والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان .

(هـ) وإلى تفضيل الفارسية ـ بوصفها لغة آرية ـ على العربية بوصفها لغة سامية .

(و) وإلى أن الذى حمل أمارات الحياة الأدبية الجديدة فى الشرق العربى فى نهاية القرن التاسع عشر ، وكذا فى الشرق الإسلامى ، وحمل مظاهر الحضارة عامة ـ هم نصارى لبنان الذين تعلّموا واستوحوا من جهود المبشرين الأمريكيين فى سوريا .

(ز) وإلى أن البربر وحدهم هم أصحاب المدنية فى شمال أفريقية والأندلس .

(ح) التنفير من حياة المسلمين الحاضرة ، لأنها حياة بدائية ذليلة .

(ط) وإلى أن السبب فى ذلك هو تعاليم الإسلام والتمسك بها [1] .

ووجدت جرائم الشعوبية مرتعاً خصيباً فى الطبقات الحاكمة ، إذ أن هذه الطبقات للأسف من أفسد الطوائف فى تاريخنا ، إنها فى الأغلب أقرب إلى الكفر منها إلى الإيمان .

وهاك مثلين لاثنين من الحكام الذين بذلوا جهوداً ظاهرة فى تغليب النزعات الشعوبية على تعاليم الإسلام .

أولهما الخديوى إسماعيل باشا .

فهذا الحاكم المصرى أعلن رغبته فى جَعْل البلاد قطعة من أوروبا ، وانفصل فى حياته الخاصة عن التكاليف الدينية ، وتوسَّع فى الشهوات الجنسية ، وفتح باب الاقتراض بالربا على مصراعيه ، واستوزر أرمنياً اسمه « نوبار باشا » استبدل القوانين الغربية بالشريعة الإسلامية .

---

(١) من رسالة « فى التبشير والاستشراق » للدكتور محمد البهى .

وبتلك السيرة أخذت الأمة الإسلامية تواجه زحف الانحلال والإلحاد على حاضرها ومستقبلها .

والحاكم الثانى هو مصطفى كمال القائد التركى المشهور .

هذا الرجل أظهر الإسلام حتى أمكنه أن يستفيد من قوى المؤمنين فى طرد الغزاة الأجانب .

فلما استتبَّ الأمر له قلبَ ظهر المجن للإسلام وأعلن حرباً مروعة على العروبة وما يمتُّ إليها ، ورمى ببقايا الخلافة الإسلامية فى البحر ، وقرر انسلاخ الدولة عن الإسلام ، ورفض بعناد وكبر إلا أن يجعل دستور الحكم لا دين له ..

وكانت هذه النكسة من أقسى ما لقى الإسلام فى تاريخه من لطمات .

والغريب أن تركيا هذه ابتعدت عن الإسلام ظناً منها أن ستستريح وتستقر ، لكن شاء الله ألّا تكون تركيا فى تاريخها كله أهونَ شأناً منها فى هذا العصر .

وألحت نزعات الشعوبية على سائر البلاد الإسلامية ، وتألفت لها مدارس قوية يمدها النفوذ الأجنبى بعطفه وعونه .

وكان رجالها فى القاهرة أجهر الناس دعوة الى ترك الإسلام ، والذوبان فى أوروبا ، ونبذ العروبة والازراء على نسبها ، وترويج مطاعن المستشرقين والمبشرين بين الناشئة ، وخلق الجو الذى يموت فيه الإسلام وتحيا بدله بواعث أخرى فى الخلق والقانون والسياسة .

وقد ألَّفَ الدكتور طه حسين كتابه : « مستقبل الثقافة فى مصر » لبلوغ هذا الهدف ، ودعا فيه إلى الذوبان فى الحضارة الغربية ، خيرها وشرها ، حلوها ومُرِّها على حد تعبيره ، وبذل جهوده فى تحويل الأمة المصرية عن عروبتها وتاريخها وعقيدتها وشريعتها ، أى فى تكفيرها جملة ، ولا بأس أن ننقل طرفاً من كلامه فى هذا الموضوع .

بدأ الدكتور طه حسين مقدمة كتابه بهذا السؤال :

« هل العقل المصرى شرقى التصوُّر والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟ أم هو غربى التصوُّر والإدراك والفهم للأشياء ؟ » .

وبعبارة موجزة ، كما يقول الدكتور (ص ٧) فى الجزء الأول :

« أيهما أيسر على العقل المصرى : أن يفهم الرجل الصينى أو اليابانى ، أو أن يفهم الرجل الفرنسى أو الانجليزى ؟ » .

ثم مضى يقول :

« إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقلٌ إنْ تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط » (ص ١١) .

ثم يستطرد بعد هذا ليؤكد ما ذهب إليه من دعوى التأثر بحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط ، فيقول :

« وإذا لم يكن بُدٌّ من اعتبار البيئة فى تقدير هذا المؤثر ، فمن اللغو والسخف أن نفكر فى الشرق الأقصى أو الشرق البعيد ، ومن الحق أن نفكر فى البحر المتوسط ، وفى الظروف التى أحاطت به ، والأمم التى عاشت حوله » . (ص ١٣) .

ثم يقول :

« وقد استطعت أن أفهم كثيراً من الخطأ ، وأسيغ كثيراً من الغلط ، وأفسر كثيراً من الوهم ، ولكن لم أستطع قط ، ولن أستطيع فى يوم من الأيام !! أن أفهم هذا الخطأ الشنيع ، أو أسيغ هذا الوهم القريب » يقصد انتساب العقل المصرى والبيئة المصرية إلى الشرق .

ثم يفصح الدكتور عن خبيئة نفسه (ص ١٦) حين يقرر هذه التُّرهات :

« إن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ، ولا قواماً لتكوين الدول .

وما أظن أحداً يجادل فى أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية ، وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضاً قبل أن ينقضى القرن الثانى للهجرة .

فالمسلمون إذن قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة ، وهو أن السياسة شىء ، والدين شىء آخر .

وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أى شىء آخر » .

ويقول الدكتور :

« جاء الإسلام وانتشر فى أقطار الأرض وتلقته مصر لقاء حسناً ، فاتخذته لها ديناً ، واتخذت لغته العربية لها لغة ، فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى ؟ وهل جعلها أمة شرقية بالمعنى الذى يُفهم من هذه الكلمة الآن ؟ كلا .

لأن المسيحية التى ظهرت فى الشرق غمرت أوروبا فلم تصبح أوروبا شرقية .

فلست أدرى ما الذى يفرق بين المسيحية والإسلام وكلاهما قد ظهر فى الشرق الجغرافى !؟

إذا صح أن المسيحية لم تمسخ العقل الأوربى ، فيجب أن يصح أن الإسلام لم يغير العقل المصرى أو لم يغير عقل الشعوب التى اعتنقته ، والتى كانت متأثرة بهذا البحر الأبيض المتوسط .

بل نذهب إلى أبعد من هذا فنقول مطمئنين :

« إن انتشار الإسلام فى الشرق البعيد ، وفى الشرق الأقصى قد مَدَّ سلطان العقل اليونانى وبسطة على بلاد لم يكن قد زارها إلا لماماً !!

ولا ينبغى أن يفهم المصرى أن الكلمة التى قالها إسماعيل ، وجعل بها مصر جزءاً من أوروبا قد كانت فناً من فنون التمدح ، أو لوناً من ألوان المفاخرة ، إنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وأنواعها » .

ويقول طه حسين :

« إن مقياس رُقيِّ الأفراد والجماعات فى الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا إنما هو حظنا من الأخذ بأسباب الحياة المادية الأوربية .

وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة .

نظام الحكم عندنا نقلناه نقلاً عن أوروبا فى غير تحرُّج ولا تردد ، واذا عِبْنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء فى نقل ما عند الأوربيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية » ا هـ .

الدكتور طه حسين يطلب طلباً صريحاً أن ننسلخ من عروبتنا الشرقية ، ونولى وجوهنا شطر الغرب .

ويطلب طلباً آخر آكد من طلبه الأول ، أن ندع الإسلام وراء ظهورنا ، وألا نحترم أى رباط له يصلنا بالآخرين .

فإن وحدة الدين واللغة لا يجوز أن يكونا قوام أمة .

وهو يقول : لقد هجرنا الإسلام ـ من حيث هو شريعة ونظام فيجب أن نهجر الإسلام ـ من حيث هو نسب وآصرة ، ومن حيث هو مبعث توجيهات خاصة فى التقاليد والأخلاق .

ويجب أن نلقى بأنفسنا فى أحضان الغرب ، وأن نعب من حضارته ما استطعنا ، حضارته المادية والمعنوية ، صفوها وكدرها ، أو بتعبيره الفذ ، حُلْوها ، ومُرّها ، خيرها وشرها .

وماذا نصنع بعد هذا الانسلاخ التام من العروبة والإسلام ؟

يقول الدكتور : « نبنى أمتنا الجديدة وعلاقاتها القريبة والبعيدة على أساس المنفعة » .

وما هذه المنفعة المنشودة ؟ شيء يعرفه الدكتور وحده .

المنفعة التى يظفر بها امرؤ بعد فَقْد إسلامه وعروبته ، وما تكون ، إنها شيء أشبه بأجرة البغيِّ بعد أن تبيع عِرْضها .

ومقياس المنفعة فى علم الأخلاق مقياس قذر ، وهو فى ميدان السياسة كذلك مقياس قذر ، وإن عاش به الأفاك الإيطالى « مكيافللى » صاحب مبدأ : الغاية تبرر الوسيلة .

ومن حق القراء العرب أن يعرفوا لماذا يعرض الدكتور طه حسين على المسلمين العرب أن يدعوا عروبتهم وإسلامهم ، ملتمسين النفع من الغرب .

إنه ارتضى لهم ما ارتضى لنفسه .

الدكتور الذكى – فى سبيل المنفعة – قال هذا الكلام يدعم به مبدأ الفرعونية المصرية ، يوم كان لهذا المبدأ رواج .

فلما كسدت سوقه أصبح خطيباً للقومية العربية !!

والدكتور الذكى أَلَّفَ كتابه عن الأدب الجاهلى يشكك الناس فى قيمة القرآن التاريخية ، يوم كان للإلحاد رواج. فلما وجد الثمن أغلى فى ميدان التدين أَلَّفَ كتاباً ساند فيه الإسلام سماه « مرآة الإسلام» .

والدكتور الذكى جثا أمام « فاروق » يُقبِّل الأرض بين قدميه ، ويقول له الكلمة التى ما قالها أحد : يا صاحب مصر !!

ويقول : إن المؤرخين يزعمون مصر هدية النيل ، وأنا أقول :

مصر هدية « الفاروق » .

فلما وَلَّى النظام الملكى ، كان أول مَنْ رفع عقيرته فى سوق السياسة يعرض خدماته على النظام الجمهورى !!

وطالب القوت ما تعدى .

الرجل يعيش وفق قانون المنفعة .

ولكن أيحسب الدكتور أن الناس جميعاً مثله فى ضعف الأخلاق وسرعة التقلّب ، فهم على استعداد لترك العروبة والإسلام من أجل منفعة مزعومة .

أما قرأ الدكتور فى ثبات الأخلاق قول الشاعر العربى :

وإنَّا ــ على عَضِّ الزمان الذى نباَ   نُعالج من كُرْه المخازِى الدَّواهِياَ

أو ما سمع المثل القائل : « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها » .

إنه طبعاً يهزأ بهذا المنطق ، ولايزال فى قرارة النفس يعتنق المنفعة ، قبَّحه الله من دين ، وقبَّح مَنْ يدخل فى نطاقه الخسيس .

شيء واحد وحسب هو الذى ثبت عليه الدكتور ..

كراهية الإيمان وأهله ، والنقمة على الدعاة المسلمين .

لقد أرسل زغاريد النساء يوم ألغيت المحاكم الشرعية ، وهو يستعد لزغاريد أخرى يوم إغلاق الأزهر .

وَلْندعْ هذا الشعوبى الذى ألَّف كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » يحاول به خدمة الحانقين على العروبة والإسلام .

ولنتابع السيد الأستاذ « محمد كرد على » يتناول القضية نفسها فيقول :

« شعوبيان مخرفان : شامى ومصرى »

ومن هؤلاء الشعوبيين فى الشام هراء خيالى ، الذى دعا الشاميين ــ فى جملة الآراء التى جاهر بها ــ إلى أن تصفو نياتهم ، فينسوا الأجداد الذين يشيدون أبداً بمفاخرهم ، وينسوا الدولة الإسلامية التى يتغنون على الدوام بمجدها ، وما عهدنا عاقلاً يدعو أمة إلى تناسى تاريخها ، بل رأينا كل أمة تدرس تاريخها ، مهما كان من اسوداد صفحاته ، لأنه مهمازها إلى العمل ، وتتمة ما بدأ به أجدادها ، تتوق شرهم ، وتقتبس خيرهم ، ورأينا من الأمم ــ كبعض جمهوريات أميركا الجنوبية ــ مَنْ تصطنع لها تاريخاً تتغنى به فيعينها على نهوضها ، وأنت لو أردت من هذا المتفلسِف أن يأتيك برجل يصح لنا أن ننسج على منواله لعجز واكتفى بأن قال

لك : إن الإسلام لم يأت فيه رجل يذكر ، ولاختلق الأكاذيب على مَنْ أجمعت الأمة بل الأمم على صلاحه أمثال صلاح الدين يوسف ، ولشوقى فى هذا المعنى :

مَثَلُ القومِ نسَوْا تاريخهم كلقيطٍ عى فى الناسِ انتسَابا
أوْ كمغلوبٍ على ذاكرةٍ يشتكِى من صلةِ الماضى انقضَابا

ومن هؤلاء الشعوبيين فى مصر رجل ، يزعم أن الإسلام دين بدوى يتسم بكراهية الترف ، وبشدة الإيمان بالوحدانية ، وأن الوهابيين اليوم يمثلون روحه أصدق تمثيل ، وأن العرب تقيدوا لأول أمرهم بالقرآن ، فلم ينقلوا شيئاً من الأدب الإغريقى بل كان الروح البدوى سائداً فقوطعت الفنون الجميلة ، لأن البدوى يكره بطبعه جميع ضروب الترف والحضارة ، وهو نفسه يعيش فى صحراء لا يحتاج معها إلى ما فى فنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش . ولذلك حرَّم التصوير ، كما حرَّم صناعة التماثيل ، وصار الغناء والموسيقى يتلهى بهما السكارى ، مع أن من الرسم تستفيد الأمة رأيها وذوقها فى الجمال ، ومن « الدرامة » تُكتسبُ سليقة النقد الاجتماعى ، فتبقى جذوة الإصلاح حية متقدة ، وتنزع نزعة رُقىٍّ وتقدم ، إن تعصبنا للشرق تعصب للقديم أكثر مما هو للشرق ، وأنفة من أن يقال إن حضارتنا قد أفلست أمام حضارة أوروبا .

قال :

وليس علينا للعرب أى ولاء ، وإدمان الدرس لثقافتهم مُضْعِفٌ للشباب ومبعثر لقواهم ، فيجب أن نُعوِّدهم الكفاية بالأسلوب المصرى الحديث ، لا بالأسلوب العربى القديم . ويجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب ، وأن ندرس لهم العربية الفصحى ، كما ندرس الأشورية والبابلية ، وأن ننظر إلى لغة النابغة والمتنبى ، كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية ، إن العربية ليست لغتنا ولا نستفيد منها ، وإن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم بل بعض ألفاظهم .

قال :

وكل من اختبر هذه اللغة يعرف أن « قاسم أمين » و« لطفى السيد » كانا على حق عندما نصحا باستعمال العامية المصرية بدلاً منها .

وقال :

إن الرابطة الشرقية سخافة ، والرابطة الدينية وقاحة ، وإن الرابطة الحقيقية أن نفنى فى مدنية أوروبا ، ونتطور بأطوارها ، ونتزوج من بناتها ، ونزوجهم بناتنا ، ونأخذ عنهم كُلّ شيء .. وإن الأصلح لمصر إذا أرادت التخلص من آسيا والشرق ، والتاريخ العربى ، أن تعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخ مصر . ودَرْس مدنية الفراعنة أفيد من درس مدنية العرب ، وأن ندرس آثار العرب ، كما ندرس الفينيقية .

وقال :

إن من تأمل فى أحوال الأمم الناهضة يعرف أنه ليست أمة تنهض فى العالم الآن إلا وتنسلخ من قديمها ، سواء أكان هذا القديم آسيوياً ، أم غير آسيوى .

هذه خلاصة آراء المتفلسف الشعوبى ، ولو أردناه وصاحبه معاً أن ينزل عن مشخصاته ومقدساته [1] التى يتظاهر بالبعد عنها ، وهى أعلَقُ بقلبه من شعرات قُصِّه [2] لاستكبر وأبى » ا هـ .

أحقٌّ أن تجديد قوانا ما يكون إلا بإطراح تعاليم الإسلام واعتداء حدود الله ، وإهالة الرُّغام على ماضينا كله ؟.. ثم مد الأكفّ إلى الفكر اليونانى ، والقانون اللاتيني ، والفن الإيطالى ، والارتماء جملة فى أحضان الغرب ؟

ذلك ما يجاهر به أُجراء الاستعمار بيننا .

لا تجديد ، ولا بناء إلا على أنقاض الكتاب والسنة !!

لا عروبة ولا إسلام إن أردتم الحياة.

هكذا ينصحنا سماسرة أوروبا ، والمبشرون بمبدأ المنفعة ، لا بوحدة الدين واللغة ، كما يتبجح بذلك طه حسين وسائر العصابة المسوقة معه !!

---

(١) أهل الكتاب من العرب يطلبون من المسلمين أن ينسوا دينهم ، أما هم ــ هوداً كانوا أم نصارى ــ فلا ينسون دينهم أبداً !!.

(٢) يقال هو ألزم لك من شعرات قصك . والقص : الصدر .

وقد نقبت فى أرجاء نفسى ، وأقطار البلاد .

ما هى العوائق التى يضعها ماضينا أمام حاضرنا ومستقبلنا؟.. لا شىء !!

إن ماضينا أنظف وأعفّ من ماضى أوروبا .

واللص التائب ربما ضاق بماضيه إذا ذُكِّر به !! أما الشريف الذى لا يلحقه غبار ، فما الذى يخجله من ماضيه ؟

ولو أننا سِرْنا وفق قانون المنفعة ، كما يفسره الإنسان ، لا كما يفسره الحيوان لوجدنا منفعتنا فى البناء على دعائم الماضى ، ذلك أنها دعائم ممهدة راسخة تُشَادُ فوقها الأبراج دون حرج ، أما بذل الجهود فى محاولة تهديم هذا الماضى ، فهو بعثرة للقوى فى غير طائل ، وعَوْدٌ من اللفِّ والدوران بغير ثمرة .

وفشل كثير من الثورات التى تسمى ـ إصلاحية ـ سببه هذا الغباء والكنود ، إن أصحابها يحسبون التجديد مجموعة العلاجات التى نهضت أوربا من ظلمات قرونها الوسطى . وأوربا ـ فى نهوضها ـ حاربت الكهانة ، والحمق ، والاستبداد والتعصب ، وحاربت ذلك بشعاعات من مبادىء الإسلام التى حملها العرب إلى القارة المستوحشة .

فبأى عقل يفكر ناس فى تجديد الأمة العربية الإسلامية ، فيقترحون لذلك أن تنسلخ من تاريخها وتعاليمها وشرائعها !!

يقول الغمراوى [1]:

إن التجديد فى الأدب ، كالتجديد فى العلم لا يمكن إلا على أساس تعاون الحاضر والماضى ، يبنى العقل فى حاضره على ما أسس العقل فى ماضيه . فإن الحق وحدة قائمة لا يقوم جزء منها إلا على جزء ، فلن يقوم حق جديد إلا على أساس من حق قديم ، بل الحضور والمضى ، والحدوثْ والقِدَم إنْ هى إلا ألوان يبدو بها الحق ـ أو الباطل ـ لعين الإنسان ، وما هى من لون الحق فى شىء ، وإنما هى من

---

(١) من كتاب النقد التحليلى للأدب الجاهلى لمحمد الغمراوى .

لون المنطار الذى ينظر منه الإنسان ، وإلا فالحقائق فى نفسها متكافئة فى الثبوت تكافؤ نقط سطح الكرة ، غير أن حياة الفرد أخصر ، وحقائق الكون أعظم وأكثر من أن يستوعب الفرد منها إلا جزءاً متضائلاً ، كما أن العين لا تحيط من الأرض فى آنٍ واحد إلا بجزء من الأرض صغير .

وقد يستطيع الجنس البشرى إذا اتصلت به الحياة إلى الأبد أن يحيط من الحقائق ، بمقدار يزداد إلى ما لا نهاية ، من غير أن يستنفد هذه الحقائق ، أو يشرف على أقصاها .

ومهما يكن من شروط لكى نحقق هذا التقدم المطرد فى استيعاب الحقائق ، فإن شرطاً أساسياً له أن تتجرد حركة العقل ـ عقل الفرد ، وعقل الجنس ـ تجرداً تاماً عن التذبذب ، فإن الذى يمحق الأعمار ، أعمار الأفراد والشعوب ، هو التذبذب بين غايتين ، قَرُبَ المدى بينهما أم بَعُدَ ، فلو ظل « البندول [1] » يضرب إلى سَرْ مَدِ الدهر ما قطع أكثر من تلك القوس المحدودة . ولو ظل الإنسان تتعارض جهوده ، وتلاغى أعمار ، ينقض اليوم من غير دليل ما أبرم بالأمس ، ويبرم غداً من غير دليل ما نقض اليوم، لظل « البندول » يتحرك ولا يتقدم ، وليس أعدى للفرد ، ولا للمجموع من قوم يزينون له هذا التذبذب باسم التقدم ، وهذا التعطيل باسم التجديد . ا هـ .

البعث العربى شعوبية العصر الحديث :

كان هدف الاستعمار الحديث من هجماته الواعية القوية على ديار العروبة والإسلام أن يصيب مقاتل الأمة المغلوبة ، وأن يباعد بينها وبين دينها جهد الطاقة .

إن كُرْهه للإسلام قديم فى تاريخه كمينٌ فى دمه ، فكيف يضيع الفرصة التى واتته للإجهاز عليه ، وعلى المنتمين إليه !

لذلك اتفقت كلمة الانجليز والفرنسيين والطليان ـ وإن اختلفت وسائلهم ـ

---

(١) الرقاص أو اليواس أو المعلقة .

على أن يطاردوا الإسلام فى كل مكان وأن ينشئوا أجيالاً جديدة تجهل تعاليمه أو تزدريها إن عرفت أطرافاً منها .

فلما سقط الرجل المريض ، وزهقت روحه وقُسِّمتْ تركته فى إفريقيا وآسيا على الدول الأوربية الغازية ، شرعت هذه لفوْرها تعمل فى دأب ومكر لبلوغ غايتها .

فكان أول ما نفذته فى برامج التربية والتعليم محو الرابطة الإسلامية العامة محواً تاماً ، وخلق « الوطنية الخاصة » لتحل محلها سواء فى ميدان التاريخ القديم والسياسة المعاصرة ، أو فى ميدان الأخلاق والسلوك الشخصى والجماعى .

ومن ثَمَّ أضحتْ الوطنية مناط الولاء ، ومظهر الحماس ، وأساس الانطلاق ، والمعبد الذى يقدم على المسجد ، والراية التى تجمع الكل ..

لكن هذه الوطنيات التى ضخَّم الاستعمار مدلولها ، ورتَّب عليها نتائج بعيدة عجزت عن قهر العقيدة الإسلامية وعن كسر تطلع المسلمين إلى إحياء شريعتهم واستعادة أمجادهم .

وهنا جرَّب الاستعمار عوضاً آخر يكون أنكى فى النَّيْل من الإسلام ، وتعويق سيره وتمخض دهاؤه عن مبدأ القومية ، علّه يجدى حيث فشل غيره !

وكان الأمريكان قد برزوا فى الميدان الغربى ، وساقوا بين يدى التبشير الحديث أمداداً من المال ، وفنوناً من العلم .

وتبدَّتْ لهم طبيعة المنطقة التى تضطرم بالقلق والحركة .

فرأوا أن النزعة القومية يمكن أن تغلق الطريق على الإسلام ، وأن الإصلاحات الاشتراكية يمكن أن ينحسر لديها المدُّ الشيوعى .

وبهذه وتلك يمكن للغرب أن يأمن عَدُوَّيْهِ ـ هكذا يفكر ـ الشيوعية والإسلام ، فتبقى الشيوعية وراء الحدود لا يرغب فيها أحد .

وتتلاشى أمواج الإسلام وراء سدود القومية حتى تجفَّ وتتلاشى على مَرِّ الزمن .

ونحن ولله الحمد عرب أصلاء ، وأرسخ عرقاً فى العروبة من أدعيائها الذين وُلدوا فى حِجْرِ الاستعمار الحديث .

ونحن كذلك أحرص على أمجاد قومنا وأصونُ لها وأنهض بعبء هذه الصيانة الواجبة .

ولا نريد أن ندخل مع أحد فى جدل نظرى تافه : هل الدين جزء من القومية أو هو شيء بعيد عنها ؟

ليكن هذا ، أو ليكن ذاك

إنما نريد توكيد شيء واحد ، أننا نحن المسلمين العرب ، الذين نبلغ تسعة أعشار الأمة العربية ونصف العشر الباقى . لن ندع ديننا هذا ، ولن نستجيب لمطالب المستعمرين الجدد ، فى جَعْله عقيدة لا شريعة ، أو فى جعل عقيدته شيئاً ثانوياً ، يجيء بعد رباط النسب والدم .

إن المطلوب فى صراحة ألّا يكون الإسلام دعامة لجامعة عامة بين أبنائه ، وألّا يكون مداداً لشريعة ظاهرة تحكم الحياة العامة .

ومطلوب من المسلمين العرب باسم القومية أن يقبلوا هذا التفكير السخيف بل مطلوب منهم أن يتعصبوا له ..!! ونحن بداهة أضداد هذا اللغو الأثيم ، ولن نستحى من مجابهة أصحابه بأنهم أدوات هائلة فى يد الاستعمار الصليبى الجديد .

إن إحياء فكرة العروبة ، على أنها شيء بديل عن الإسلام ، تفسير للعروبة لم يعرفه العرب ولا لمسلمون خلال تاريخهم كله ، ولم يبرز خلال السنين الأخيرة إلا مع دسائس لتبشير ومكره البالغ بالأجيال الحائرة التى نبتت فى ظلاله الداكنة .

وأى نجاح للحروب الصليبية أعظم من أن ينسلخ المسلمون عن دينهم ، أو بتعبير آخر أن يطلق العرب رسالتهم ، وأن يحبسوا كتاب ربهم وسنة نبيهم فى خزائن موصدة ، فلا تكون لهم رسالة ، أو تكون رسالتهم الخالدة ــ وفق تفسير

حزب البعث العربى ـ هى حق الحياة المجردة فى حدود الآمال التى ترجم عنها « حمورابى » والشعر الجاهلى .. الخ .

إن أعظم الكهان الصليبيين لن يطلب للإسلام أكثر مما طلبه السيد « ميشيل عفلق » وأتباعه ، من انكماش وذبول .

ونحن نعلم أن حزب البعث العربى ليس وحده الذى اضطلع بهذه المهمة ، غير أننا نعرض المبادىء التى قام عليها لأنها نموذج وافٍ لاطراح الإسلام وتوجيه النهضة بعيداً عن هداه .

المبادىء الأساسية ، وحدة الأمة العربية وحريتها .

العرب أمة واحدة لها حقها الطبيعى فى أن تحيا فى دولة واحدة وأن تكون حُرَّة فى توجيه مقدراتها .

ولهذا فإن حزب البعث العربى يعتبر :

١ ـ الوطن العربى وحدة سياسية اقتصادية لا تتجزأ ، ولا يمكن أى قطر من الأقطار العربية أن يستكمل شروط حياته منعزلاً عن الآخر .

٢ ـ الأمة العربية وحدة روحية ثقافية ، وجميع الفوارق القائمة بين أبنائها عرضية زائفة تزول جميعها بيقظة الوجدان العربى .

٣ ـ الوطن العربى للعرب ، ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدراته .

شخصية الأمة العربية :

الأمة العربية تختص بمزايا متجلية ، فى نهضاتها المتعاقبة ، وتتسم بخصب الحيوية والإبداع ، وقابلية التجدد والانبعاث ، ويتناسب انبعاثها دوماً مع نمو حرية الفرد ومدى الانسجام بين تطوره وبين المصلحة القومية ، ولهذا فإن حزب البعث العربى يعتبر :

١ ـ حرية الكلام والاجتماع والاعتقاد والفن مقدسة لا يمكن أية سلطة أن تنتقصها .

٢ ــ قيمة المواطنين تُقدَّر ــ بعد منحهم فرصاً متكافئة ــ بحسب العمل الذى يقومون به فى سبيل تقدم الأمة العربية وازدهارها ، دون النظر الى أى اعتبار آخر .

رسالة الأمة العربية :

الأمة العربية ذات رسالة خالدة تظهر بأشكال متجددة متكاملة فى مراحل التاريخ ، وترمى إلى تجديد القيم الإنسانية وحفز التقدم البشرى وتنمية الانسجام والتعاون بين الأمم .

ولهذا فإن حزب البعث يعتبر :

١ ــ الاستعمار ، وكل ما يمتُّ إليه عمل إجرامى ــ يكافحه العرب بجميع الوسائل الممكنة وهم يسعَوْنَ ضمن إمكانياتهم المادية والمعنوية إلى مساعدة جميع الشعوب المناضلة فى سبيل حريتها .

٢ ــ الإنسانية مجموع متضامن فى مصلحته ، مشترك فى قيمته وحضارته ، فالعرب يتغذون من الحضارة العالمية ويغذونها ويمدون يد الإخاء إلى الأمم الأخرى ويتعاونون معها على إيجاد نظم عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام والسمو فى الخلق والروح .

مبادىء عامة :

حزب (البعث العربى) حزب عربى شامل تؤسس له فروع فى سائر الأقطار العربية ، وهو لا يعالج السياسة القطرية إلا من وجهة نظر المصلحة العربية العليا. (المادة ١) .

... مركز الحزب العام هو حالياً دمشق ، ويمكن أن ينقل إلى أى مدينة عربية أخرى إذا اقتضت ذلك المصلحة القومية (المادة ٢) .

... حزب (البعث العربى) قومى يؤمن بأن القومية حقيقة حية خالدة ، وبأن الشعور القومى الواعى الذى يربط الفرد بأمته ربطاً وثيقاً هو شعور مقدس ،

حافل بالقوى الخالقة ، حافز على التضحية ، باعث على الشعور بالمسئولية عامل على توجيه إنسانية الفرد توجيهاً عملياً مجدياً .

والفكرة القومية التى يدعو اليها الحزب هى إرادة الشعب العربى أن يتحرر وأن تعطى له فرصة تحقيق الشخصية العربية فى التاريخ وأن يتعاون مع سائر الأمم على كل ما يضمن للإنسانية سَيْرها القويم إلى الخير والرفاهية (المادة ٣) .

... حزب (البعث العربى) اشتراكى يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية ، لأنها النظام الامثل الذى يسمح للشعب العربى بتحقيق إمكانياته وتفتح عبقريته على أكمل وجه فيضمن للأمة نمواً مطرداً فى انتاجها المعنوى والمادى وتآخياً وثيقاً بين أفرادها (المادة ٤) .

... حزب (البعث العربى) شعبى يؤمن بأن السيادة هى مِلْكُ الشعب وأنه وحده مصدر كل سلطة وقيادة ، وأن قيمة الدولة ناجمة عن انبثاقها عن ارادة الجماهير ، كما أن قدسيتها متوقفة على مدى حريتهم فى اختيارها ، لذلك يعتمد الحزب فى أداء رسالته على الشعب ويسعى للاتصال به اتصالاً وثيقاً ويعمل على رفع مستواه العقلى والأخلاقى والاقتصادى والصحى لكى يستطيع الشعور بشخصيته وممارسة حقوقه فى الحياة الفردية والقومية (المادة ٥) .

... حزب (البعث العربى) انقلابى يؤمن بأن أهدافه الرئيسية فى بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية لا يمكن أن تتم إلا عن طريق الانقلاب والنضال ، والاعتماد على التطور البطىء والاكتفاء بالإصلاح الجزئى السطحى يهددان هذه الأهداف بالفشل والضياع ، لذلك فهو يقرر :

١ ــ النضال ضد الاستعمار الأجنبى لتحرير الوطن العربى تحريراً مطلقاً كاملاً .

٢ ــ النضال لجمع شمل العرب كلهم فى دولة مستقلة واحدة .

٣ ــ الانقلاب على الواقع الفاسد انقلاباً يشمل جميع مناحى الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية (المادة ٦) .

... الوطن العربى هو هذه البقعة من الأرض التى تسكنها الأمة العربية والتى تمتد ما بين جبال طوروس وجبال بشتكويه وخليج البصرة والبحر العربى وجبال الحبشة والصحراء الكبرى والمحيط الاطلسى والبحر الابيض المتوسط (المادة ٧) .

... لغة الدولة الرسمية ولغة المواطنين المعترف بها فى الكتابة والتعليم هى اللغة العربية (المادة ٨) .

... راية الدولة العربية هى راية الثورة العربية التى انفجرت عام ١٩١٦ لتحرير الأمة العربية وتوحيدها (المادة ٩) .

... العربى هو مَنْ كانت لغته العربية وعاش فى الأرض العربية أو تطلّع إلى الحياة فيها ، وآمن بانتسابه إلى الأمة العربية (المادة ١٠) .

... يُجْلى عن الوطن العربى كل مَنْ دعا أو انضم إلى تكتل عنصرى ضد العرب ، وكل مَنْ هاجر إلى الوطن العربى لغاية استعمارية (المادة ١١) .

.. تتمتع المرأة العربية بحقوق المواطن كلها والحزب يناضل فى سبيل رفع مستوى المرأة حتى تصبح جديرة بتمتعها بهذه الحقوق (المادة ١٢) .

... تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص فى التعليم والحياة الاقتصادية كى يُظهر المواطنون فى جميع مجالات النشاط الإنسانى كفاءاتهم على وجهها الحقيقى وفى حدودها القصوى (المادة ١٣) .

فى السياسة الداخلية :

... الرابطة القومية هى الرابطة الوحيدة القائمة فى الدولة العربية التى تكفل الانسجام بين المواطنين وانصهارهم فى بوتقة أمة واحدة ، وتكافح سائر العصبيات المذهبية والطائفية القبلية والعِرْقية والإقليمية (المادة ٢) .

... يوضع بملء الحرية تشريع موحد للدول العربية ينسجم مع روح العصر الحاضر وعلى ضوء تجارب الأمة العربية فى ماضيها (المادة ٥)

... تُمنح حقوق المواطنين كاملة لكل مواطن عاش فى الأرض العربية وأخلص للوطن العربى وانفصل عن كل تكتل عنصرى (المادة ٧) .

* * *

هذا هو برنامج حزب البعث العربى .

أترى فيه ذِكْراً للإسلام ، أو إيماءة خفية إلى عقائده وشرائعه وماضيه وحاضره !! لا .

فإذا كان الإسلام هو الذى صنع من العرب أمة ، وما كانوا قبله أمة .

وإذا كان الإسلام هو الذى جعل لهم رسالة ، وما كانت لهم من قبل ولا من بَعْد رسالة .

فيم يفسر هذا الجمود ؟

إن تفسيره واحد من اثنين لا ثالث لهما :

إن هؤلاء البعثيين صفٌّ يعمل لحساب الغرب الصليبى ، أو الشرق الشيوعى ، فى صَرْف المسلمين عن دينهم ، وإنشاء أجيال مرتدة تردرى دينها وتاريخها وحضارتها ، وتحاول بعد هذا الارتداد أن تلتحق بأحد المذاهب الاجتماعية الرائجة ، تلتحق به ذَنباً لا وزن له ولا كيان !!

أو أن العرب الذين شرفهم الله بالإسلام أرادوا أن يسيروا فى الطريق التى سار فيها قديماً بنو اسرائيل .

وما الطريق التى سار فيها قديماً بنو إسرائيل !

لقد اختار الله اليهود صدر تاريخهم ليحملوا رسالاته ، ويكونوا سفراء وَحْيه :

« ولقدْ آتينَا بنى إسرائيلَ الكتابَ والحكْمَ والنبوةَ ورزقْناهُم من الطيباتِ وفضَّلناهُم على العَالمينَ » [1].

---

(١) الجاثية : ١٦ .

وهذا الاختيار وقع لفضائل وشمائل غلبت على القوم يومئذ ، واستحقوا بها التكريم .

وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله : « **وجعلْنا منهم أئمةً يَهدُونَ بأمرِنا لما صبرُوا وكانُوا بآياتِنَا يُوقِنونَ** »[1].

لكن بنى إسرائيل حسبوا أن فضائل الصبر واليقين ليست هى التى رجحت كفتهم ، ورفعت شأنهم !! حسبوا أن الله فضَّلهم لأنهم من دم خاص وجنس مُعين !!

ومن ثَمَّ أهدروا كرامة الوحى ، واعتدوا حدود الله ، واستمرءوا العصيان والعدوان !!

فكانت عقباهم لعنة خالدة صرفت النبوات عنهم أبداً ، وبعثرتهم فى آفاق الأرض ، أمماً محقورة منكودة لا حرمة لها ولا لواء !!

كذلك يريد البعثيون بالأمة العربية !

أن يتجاهل العرب الجدد ما أفاء الله عليهم من وحى ، وما أفاءه الوحى عليهم وعلى آبائهم من وحدة وحضارة ومكانة !! ثم يزعموا فى صفاقة رائعة أن العرب بدمهم الخاص ولونهم الزاهى طليعة عالمية مهيبة ، وقوة تاريخية مرهوبة !

الحقيقة أن هؤلاء العروبيين الحاقدين على الإسلام المنحرفين عن صراطه شَرٌّ مستطير على العروبة نفسها !!

ونحن فى القاهرة نعانى الأمَرَّين من دعاة القومية العربية الذين يؤثرون العامية على الفصحى فى لغة التخاطب ، ويؤثرون الأجنبية على العربية فى تدريس الطب والهندسة بالجامعات ، ويؤثرون التقاليد الوافدة على التقاليد الأصيلة فى كل ميدان !!

حتى لكأن هذا الشعار المفتعل ــ شعار العروبة ــ ستار ضافى الذيول لوأدِ أمتنا

---

(١) السجدة : ٢٤ .

ورسالتنا ، وفَصْل حاضرنا عن ماضينا كى يمكن الإجهاز على حاضرنا ومستقبلنا جميعاً .

وماذا أفدْنا بعد تخريب القلوب والمجتمعات من معانى الإيمان وشعائره ؟

تألفت الجامعة العربية معزولة من الميدان السياسى عن العالم الإسلامى ، وأخذت هذه الجامعة تحاول استبقاء فلسطين عربية .

فهل بلغت غايتها !

كلا ، لقد خُضْنا ثلاث حروب مع اليهود سنة ١٩٤٨ ، سنة ١٩٥٦ ، سنة ١٩٦٧ .. وكان الفشل الذريع نصيبنا فى هذه الحروب كلها .

لأن اليهود ظهروا فى العصر الحديث تجمع شملهم صورة عقيدة .

أما نحن فقد أطرحنا الإسلام ظِهرياً ، وخُضْنا معارك خطيرة دون معتقدنا الجليل فلم يكن بُدٌّ من هذه النهايات المشئومة .

حُرِمْنا حماس الإيمان فى الأرض ، وبركاته من السماء فوقع الخذلان ..

كان هتاف « الله أكبر » يطلق الجنودَ صواريخ تُدمِّر كل شىء بأمر ربها ..

أما فى ظل هذا البعث العربى ، أو القومية العربية فلا يوجد « الله أكبر » ، ولا توجد صلوات جامعة ، ولا يوجد فداء ، ولا وفاء .. ولا آخرة ، ولا استشهاد ، ولا جنة ولا خلود. إن العروبة الناقمة على القرآن والسنة محت هذا كله من الأفئدة ..!!

ولو أن الجامعة العربية تركت فلسطين لأهلها من أول يوم ، ما كسب اليهود كل هذه المكاسب من العرب .

لقد كان أهلها المسلمون يستطيعون بحرب العصابات أن ينجحوا أكثر مما نجح ثوار « فيتنام » بل أن يصلوا إلى مثل ما وصل إليه إخوانهم فى الجزائر ..

إن إهمال الجامعة للرباط الإسلامى هوَّن عليها أن تعطى « إيرترية » غنيمة للحبشة ، مع أن أربعة أخماس سكانها عرب مسلمون .. أو مسلمون خليط من

عرب وسود .. فماذا كان مصير هؤلاء البائسين .. ؟!

إن الحبشة تعمل على تنصيرهم بالسيف والنار ، وتسفك دماءهم بالليل والنهار ، والجامعة صامتة صمت القبور !!

كأن لكل أصحاب دين أن يظهروا بدينهم إلا المسلمين .

هذه بركات النزعة العربية المجردة !

ويقول الأستاذ محمد محمد حسين ـ وهو يكشف الغطاء أولاً عن دعاة النزعات الإقليمية ، ثم يبين كيف أن هؤلاء الاقليميين دعاة التجزء اندسوا بغتة فى صفوف دعاة القومية العربية ، وردّدوا صيحاتها ، ولا هدف لهم من هذا التلون إلا الالتفاف حول الإسلام ، ومحاولة خنقه .

أما دعاة التجزئة فقد نشطوا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى الدعوة إلى بعث التاريخ القديم فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى ، وهو التاريخ السابق على استعرابها بدخولها فى الإسلام واتخاذها لغة .

فأطلت النعرة الفرعونية فى مصر برأسها وأسفرت عن وجهها ، وغزا بها دعاتها كل ميدان : فى الكتب المدرسية ، وفى النحت والتصوير ، وفى الصحافة وفى أنماط البناء ، وفى الأزياء ، وفى الأشعرة والشارات ، وفى الأدب والقصة منه بوجه خاص .

وعارضوا بها الجامعة الإسلامية التى كانت هى السائدة قبل ذلك .. والجامعة العربية التى كانت تتهيأ لاحتلال مكانها على مسرح الحياة .

ودعا فريق من هؤلاء الانفصاليين ـ وأكثرهم لايزال على قيد الحياة ـ إلى أن تقوم نهضتنا على بعث المجد الفرعونى القديم وذلك (بالبحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة فى ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة ـ هيكل فى السياسة الأسبوعية ١٩٢٦/١١/٢٧) ودعوا (إلى تكوين فن مصرى النزعة صريح فى مصريته ـ السياسة الأسبوعية ١٩٢٧/١٢/١٧) وإلى (إبداع أدب مصرى محلى يُصوِّر أمانينا وآمالنا ، ويصور نيلنا وأرضنا المليئة

بالسحر والجمال ، ويصور الروح المصرى فى القصة والفكاهة والمسرح ، ويكون له طابع متميز عما للآداب الغربية والشرقية الأخرى ـ محمد زكى عبدالقادر فى السياسة الاسبوعية ١٩٣٠/٧/١٢) وقال أحدهم : إن أول ما يجب أن نولى وجوهنا شطره هو الأدب الفرعونى (فإذا لم يكن للكاتب ملكة يُنمِّيها أو وجدان يستمده من الأدب الفرعونى فَلْيُولِّ وجهه شطر الأدب الريفى ـ محمد أمين حسونة فى السياسة الأسبوعية ١٩٣٠/٧/١٩) .

وفى ظل هذا الاتجاه نشطت الدعوة إلى اتخاذ اللهجة السوقية التى يسمونها (العامية) لغة للأدب ، وللقصة بوجه خاص ، وضربوا للناس مثلاً بما كان من نشأة اللغات الأوروبية الحديثة على أنقاض اللغة اللاتينية (السياسة الأسبوعية ١٩٣٠/٧/١٩) .

ولقى هذا الاتجاه تشجيعاً ـ بل تحريضاً ـ من دول الاستعباد الغربى فى كل أجزاء الوطن العربى ، بل فى كل بلاد المسلمين . وكان هدفهم من ذلك واضحاً ، وهو تدعيم سياسة التجزئة التى نفذوها حين قطّعوا أوصال العرب ، وذلك بتلوين الحياة المحلية فى كل بلد من هذه البلاد بلون خاص يستند فى مقوماته إلى أصوله الجاهلية الأولى . وبذلك تعود هذه البلاد التى توحدت منذ استعربت إلى مظاهر الفرقة والانشعاب التى سبقت ذلك التاريخ ، فيستريح المستغلون من احتمال تكتلهم الذى يؤدى إلى تحررهم . ثم تكون هذه المدنيات الجديدة أكثر قبولاً لأصول المدنيات الغربية ، ويصبح كل شعب من هذه الشعوب أطوع لما يُراد حمله عليه وزجُّه فيه من الصداقات ومناطق النفوذ ، بعد أن تتفكك عُرَى الأخوة العربية والإسلامية .

ويعترف المستشرق الإنجليزى « هـ . ا . ر . جب » بذلك فى كتاب «Whither Islam» حيث يقول : (وقد كان من أهم مظاهر سياسة التغريب فى العالم الإسلامى تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون الآن . فمثل هذا الاهتمام موجود فى تركيا وفى مصر وفى اندونيسيا وفى العراق وفى إيران . وقد تكون أهميته محصورة الآن فى تقوية شعور العداء لأوربا . ولكن من الممكن أن يلعب فى المستقبل دوراً مهماً فى تقوية

القوميات المحلية وتدعيم مقوماتها ـ ص ٣٤٢ ط . لندن ١٩٣٢) .

وصحب هذه الدعوة نشاط البعوث الأجنبية فى التنقيب عن الآثار والدعاية لما يكتشف منها فملأوا الدنيا كلاماً عن قبر توت عنخ آمون الذى اكتشفه اللورد كارنارفون وقتذاك وعرض الثرى الأمريكى « روكفلر » تبرعه بعشرة ملايين من الدولارات لإنشاء متحف للآثار الفرعونية يلحق به معهد لتخريج المتخصصين فى هذا الفن . و« روكفلر » ـ كما هو معروف ـ يهودى الأصل ، وهو من غلاة الصهيونيين . وسخاؤه بهذا المبلغ الضخم يدل على ما فى هذا الاتجاه من مصلحة ظاهرة للصهيونية ، التى كانت حديثة العهد بالحصول على وعد « بلفور » وقتذاك ، فقد كان من الواضح أن مثل هذا الوعد لا يمكن تنفيذه بإنشاء الوطن اليهودى إلا وسط هذه النعرات الاقليمية المفرِّقة التى تمنع من تكتل العرب واجتماعهم . وهو تكتل يحول ـ إنْ تمَّ ـ دون اغتصاب تلك القطعة الغالية من أرض الوطن العربى .

ثم إن تطبيقها فى فلسطين بالعودة بها إلى التاريخ السابق على استعرابها يفتح للصهيونية طريقاً إلى ادعاء الحق فى هذا الجزء من أرض الوطن والدليل القاطع على صدق هذا الاستنتاج هو ما نصت عليه المادة (٢١) من صك انتداب بريطانيا على فلسطين عقب الحرب العالمية الأولى . فقد أوجبت (أن تضع الدولة المنتدبة وتنفذ فى السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات) وقد عادت أمريكا فى هذه الأيام إلى محاولة إحياء هذه النعرة بعد الحرب العالمية الثانية . والأمثلة عليها واضحة فى مؤتمر الثقافة الإسلامية الذى عقد فى برنستون سنة ١٩٥٣ ، وفى مقالى كون وويلسون بوجه خاص (ص ١٨٩ ـ ٣٠١ ـ ٣٣١ ـ ٣٤٢ من كتاب « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة » نشر فرانكلين) .

هذه الدعوة المفرِّقة المريبة تحاول فى هذه الأيام أن تجد منفذاً للعودة إلى مسرح الحياة من جديد بعد أن طردتها منه اليقظة العربية ، وهى لا تستطيع أن تعود فى صورة الدعوة إلى الفرعونية أو الفينيقية أو الآشورية ، لأن وقت ذلك قد مضى وفات ، ولأن أصحاب هذه الدعوات قد قرروا ـ كما قلت ـ أن يعملوا فى داخل

إطار القومية العربية ، وأن يسايروا التيار ويندسوا فى غمار موكبه يهتفون مع الهاتفين . بينما يعملون فى الوقت نفسه على الانحراف به من داخله . لذلك ألبسوا دعوتهم الانفصالية هذه ثوباً جديداً تمسَّحوا فيه باسم خدَّاع حبيب إلى القلوب .

* * *

العرب فى إطار الأخوة الإسلامية :

الأجناس التى دخلت فى الإسلام كثيرة ، وهى أجناس لها فى تاريخ العالم القديم مكانة بارزة .

وقد يكون العرب من ناحية العدد أقل من الهنود المسلمين ، أو أقل من الإندونيسيين .

إلا أنهم ـ وإن قَلُّوا عدداً ـ لهم بين مجموعة الأمم المسلمة درجة سَنية لا ينازعهم فيها أحد ، وهى درجة يستمدونها من اقتران حياتهم وتاريخهم بالإسلام .

وانعطاف المرء نحو قومه غريزة لا شىء فيها ، وهذا الانعطاف فى حدود الفكر الأصيل ، والميل المعقول يكون معنى القومية الذى لا اعتراض عليه .

لكن كلمة القومية قد تظهر ظهوراً مفتعلاً ، وتطنُّ طنيناً شديداً ، ولا يكون ظهورها وطنينها إلا أثراً لانحرافات نفسية ، أو مطامع شخصية ، أو اضطرابات سياسية .

وهنا لا بُدَّ لأهل الإيمان والحِجَا من التريُّث والأناة فى قبولها أو ردِّها ، وفى الحكم لها أو عليها .

قد تكون القومية رغبة جنس ما فى فرض نفسه على الخلائق مدعياً من الحقوق والخصائص ما لم يسلمه له غيره ألبتة .

وقد تكون رغبة إقليم ما فى الانفصال عما حوله ، إما إنفاذاً لرغبات استعمارية ، أو إجابة لنزعة السيطرة عند حاكم ما ، وذلك مثل القوميات الكثيرة

التى انقسم اليها قطر واحد ، كالشام ، أو الأجزاء التى تتكون منها الآن المملكة الليبية .

وهذه القوميات الوليدة فى ظروف مريبة ، أو المنتشرة على رقعة العالم مع انتشار العبث السياسى ، والمجد الشخصى ، لا يمكن قبولها على عِلّاتها ، ولا يمكن التسليم ـ فى ميدان العقيدة والخلق ـ بما تتطلبه من ولاء معين ، أو سلوك خاص .

وقد تطاحنت هذه القوميات تطاحناً مريراً ، حتى إننا لنستطيع أن نرجع إليها أسباب الحروب العالمية الأخيرة .

وكان رَدُّ الفِعْل لهذه العصبيات القومية نشوء مذاهب عالمية رَحْبة تجعل من « الإنسان » المجرد قاعدة نشاطها ومحور دعايتها ، متعالية على ما يقارن شتى القوميات من مشاعر محلية ، وقضايا شخصية ، أو شبه شخصية .

ونحن المسلمين نرحب بالوجهة الإنسانية المطلقة .

بَيْدَ أننا لاحظنا أن عناصر خبيثة ، قد تسربت إلى مؤسساتها ومحافلها ، وجعلت من هذه المجامع الإنسانية أوكاراً للنيل من ديننا وحده ، وإقرار الأمور لأديان وطوائف أخرى ..

* * *

تُرَى ما هى القومية العربية بالنسبة إلى هذه النزعات والمذاهب ؟

أظن كتاباتنا السابقة قد حددت الجواب على هذا التساؤل .

إننا نرفض كل تفسير للقومية يُحمِّلها أوزار العصبيات البالية التى ذكرناها آنفاً .

كما نرفض كل تفسير لها يسلخ العرب عن رسالتهم الكبيرة ، أو يوهى الروابط بينهم وبين المسلمين فى القارات الخمس .

يقول المستشرق الإنجليزى « جب » الأستاذ بجامعة أكسفورد :

« إن العرب هم الذين يعتبرون رسالة محمد ، وذكرى الدولة العربية نقطة

الارتكاز فى التاريخ ، والذين ـ بالإضافة إلى ذلك ـ يرون اللغة العربية وتراثها الثقافى ملكهم المشترك « يعنى هم وغيرهم من سائر المسلمين »[1].

القومية العربية المشربة بهذا الزوح الإسلامى المتغلغل فى أطواء التاريخ المهيمن على أطراف الحاضر ، هى بلا ريب نزعة حسنة ، ونهضة طيبة .

وهى لا تعدو أن تكون إقراراً لتبعة القيادة حتى يحملها الجنس العربى بالنسبة إلى سائر الأحناس الداخلة فى الإسلام ، كما أنها فى عقد الأخوة الجامعة دعم لرباطه ، وتوثيق لِعُراه .

وما يزعم عربى مسلم أن له مرجحاً من دم ، وما ينبض فيه عرق بافتيات على إخوانه المسلمين فى أنحاء الأرض ، بل إن العروبة كما شرحنا ـ قومية مفتوحة ، يستطيع أى امرىء أن يمتزج بلُبِّها ولا حرج .

لقد جعلها الإسلام كالمحيط الذى تصب فيه شتى الأنهار .

من أجل ذلك لا بُدَّ من بناء المجتمع العربى على هذه الأخوة التى تصله برسالته ، وتصله بجماعة المسلمين حيث كانوا .

وقد قرأت كلمة نُشِرتْ من ثمان وعشرين سنة فى هذه الموضوع لإمام إسلامى كبير ، نرى لزاماً أن نثبتها هنا .

قال رحمه الله :

« يجد مبدأ القومية بين زعماء الأمم وقادة الشعوب من يناصره ويقدسه ويبثه بكل وسيلة فى نفوس الناس ويضع المناهج والبرامج لينشأ الجيل القادم مُقدِّساً لقوميته معتزاً بعصبيته .

فهتلر ينادى أمته : ألمانيا فوق الجميع .

ومصطفى كمال ينادى أمته : تركيا فوق الجميع .

وموسولينى ينادى أمته : إيطاليا فوق الجميع .

---

(١) العرب فى التاريخ لبرنارد لويس .

ولا يقفون عند النداء ، بل يستخدمون التاريخ ، والذكريات ، والقوة ـ إذا احتاج الأمر ـ تثبيتاً لهذا المبدأ فى نفوس شعوبهم .

ويرتفع مع هذا صوت الفلاسفة وعلماء الاجتماع وبعض السياسيين يوضحون للناس خطر التمسك بمبدأ القومية ، وضرورة التشبع بمبدأ العالمية ونسيان فكرة الوطن الخاص ، والعنصرية الجنسية .

ومصر ـ التى تعوَّدت تقليد الغرب ، والإعجاب بنظمه وبرامجه ـ تقف على مفترق هذين الطريقين .

فتارة تسمع فى جرائدها مَنْ يحبذ القومية .

وأخرى تسمع مَنْ يهيب بها إلى العالمية .

ويدلى كل منهما بأدلته وبراهينه .

اسمعوا يا قوم :

أما مبدأ « العالمية » فهو إن كان مبدأ الإنسانية والسلام والخير العام ، إلا أن أمم الغرب وحكومات الاستعمار جعلته شبكة تصطاد بها ضعاف العقول ، وتكسر به حِدَّة المقاومة عند الشعوب المظلومة حتى تكون لقمة سائغة لها .

وما دامت الأمم الغربية تعتقد فى أمم الشرق الحطة والجهالة والذلة والمهانة وتترفع عن الاختلاط بها ، وتظن أنها من طينة غير طينتنا ، وكل ما تريده منها أن تمتص دمها وتنتفع بخيراتها وتستخدم أبناءها فى قضاء شهواتها السياسية ومآربها الاستعمارية .

مادامت أمم الغرب على هذه الروح الفاسدة مع ما بينها هى نفسها من التباغض والتحاقد ، فإن مبدأ العالمية عند الشرقيين من أخطر المبادىء على حياة أممهم .

وأما مبدأ « القومية » فهو مبدأ خطر كذلك لا ينتج إلا الشرور والآثام والحروب والتخاصم والتنافس والتزاحم .

فإذا كانت كل أمة تدعى أنها سيدة الجميع ، وتعمل للوصول إلى هذه السيادة فمتى تهدأ الثورات أو يسود السلام ؟

وها نحن نرى نتائج تمسك أمم بهذا المبدأ فى مؤتمراتهم التى لم يفلح واحد منها حتى الآن .

ذلك إلى أنه غير طبيعى ، لأن العالم يسير إلى الوحدة والاتصال وكل ما صادم الطبيعة لا بُدَّ أن يزول .

فكلا المبدأين بالنسبة لمصر والشرقيين ضَارٌّ غير ملائم لها .

فالعالمية مع جمالها النظرى قضاء عليهم ، والقومية مبدأ خاطىء من أساسه .

فإذا وُفِّقنا إلى تربية النشء وتكوين نفوس الأمة على مبدأ يضمن لنا حب الخير العام والسلام والعمل لفائدة الأمم جميعاً ـ وذلك كل ما فى العالمية من جمال ـ ويضمن لنا مع هذا التمسك بعزتنا ، والدفاع عن حوزتنا ، والذود عن أوطاننا ومقدساتنا ـ وذلك كل ما فى القومية من فائدة ـ كنا قد وصلنا إلى خير كثير ، وأخذنا من كلا المبدأين فائدته ، وتجنبنا ضرره ، وبرئنا من وصمة التقليد ، وفَضلْنَا الغرب الذى تلعب به الأهواء والشهوات ، ودللنا بعملنا هذا على أسمى معنى من معانى الاستقلال النفسى .

ولا أدرى لماذا نذهب بعيداً وهذا المبدأ بين أيدينا؟

أرشدنا إليه العزيز الحكيم فى كتابه الكريم ـ وهو الذى يعلم مصالح عباده ـ ويرشد خَلْقه إلى أقوم السبل فى حياتهم المادية والروحية معاً .

وذلك المبدأ الذى يجب أن ينشأ عليه أبناؤنا ، وتتربى عليه نفوسنا ، هو مبدأ « الأخوة الإسلامية » .

الأخوة الإسلامية التى قررها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« إنَّمَا المُؤمنُونَ إخْوَة فَأصْلِحُوا بَينَ أخَوَيْكُمْ واتَّقُوا الله لعَلَّكُم تُرْحَمُون »[1].

وقررها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« المسلم أخُ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يَحقِرَ أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : ماله ودمه وعِرْضه » .

إننا إذا تمسكنا بهذا المبدأ قويت رابطتنا النفسية ، وقويت رابطتنا بالأمم الشرقية ، وعصمتنا العقيدة من الاستكانة للغاصب والخنوع للذل والاستعباد .

إننا إذا جعلنا مبدأ الأخوة الإسلامية هو مبدأ التربية عندنا ، وأساس مناهجنا ونظمنا ، وخدمنا العالم الذى يسير إلى الإسلام بخطوات واسعة ، وخدمنا الحضارة والمدنية اللتين لن تجدا ديناً يتمشى معهما ويكمل ما نقص من مظاهرهما غير الإسلام وبنينا الجيل القادم على أقوى دعامة وأمتن أساس .

« فلنكن شجعاناً فى التحرر من نَيْر التقليد الأجنبى ولو مرة واحدة » .

* * *

إن الأخوة الإسلامية التى ندعو إليها ترادف الأخوة الإنسانية التى ينشدها كبار القلوب من البشر .

ذلك لأنها تسع شتى الأديان والأقوام مع بقائهم جميعاً على مللهم دون نكير ، وتضبط الحياة العامة بنظام يقوم على محض العدالة ، والرحمة ، والتسامح .

أى أن غير المسلمين يتساوون مع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويختلفون عنهم فيما ارتضوه لأنفسهم من عقائد غير إسلامية .

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .